

التفاعل الحضاري بين الإسلام والغرب: مساهمة الفكر الإسلامي في نشأة الإصلاح البروتستانتي.

Civilizational Interaction between Islam and the West : « The Contribution of Islamic Thought to the Emergence of the Protestant Reformation »

¹د.سفيان حامدي جامعة الزيتونة تونس

تاريخ الاستلام: 2025/04/25 تاريخ القبول: 2025/04/27 تاريخ النشر: 2025/05/31

ملخص:

يبسط بحثنا النظر على إشكالية التأثير الممكن للفكر الإسلامي في العصور الوسطى على تشكيل اللبنة الأولى لحركة الإصلاح البروتستانتي في أوروبا، من خلال معابر الفلسفة، والعلوم، ومفهوم العلاقة بين الفرد والدين. وتسعى هذه المطارحة إلى استقصاء أوجه التأثير الممكنة، ورصد مسارات التفاعل الحضاري بين العالم الإسلامي والمسيحي، بعيداً عن القراءة الأحادية للتاريخ، مع الانفتاح على فرضية التداخل الفكري الذي سبق لحظة الإصلاح الديني والذي سائر لحظات التحول الديني الفارقة في التاريخ الغربي.

وسنعمل في لحظة أولى، على بيان تجليات النهضة العربية الإسلامية في العصور الوسطى التي شملت جميع وجوه الحياة بما فيها المجالات العلمية والعقدية والفلسفية.

وتتجه الهمّة في لحظة ثانية، صوب تحليل تجليات تأثير النهضة العملية والفكرية العربية الإسلامية على الساحة الفكرية في أوروبا العصور الوسطى.

ونمخّض اللحظة الثالثة إلى تحليل التأثير الأوروبي بالعلماء المسلمين، وبنور الحضارة الإسلامية في أوجه شتى، وكيف حفزت الأفكار الوافدة من الشرق في الغربيين التوق خوض معركة إصلاحية ضد الكنيسة وافكارها.

ونتوج هذه المقاربة بخاتمة، نجمل فيها أهم النتائج التي انتهى إليها نظرنا، ونفتح للعمل أفقا للنقد.

كلمات مفتاحية: الإصلاح، الإسلام، المسيحية، الفكر، التأثير

Abstract:

This research seeks to critically investigate the possible influence of medieval Islamic thought on the early foundations of the Protestant Reformation in Europe. It does so by exploring key channels of transmission—namely, philosophy, science, and evolving notions of the individual's relationship with religion. The study aims to identify the contours of potential intellectual impact and to map the trajectories of civilizational interaction between the Islamic and Christian worlds, moving beyond reductionist or unilateral historiographical approaches. It further adopts an open stance toward the hypothesis of cross-cultural intellectual exchange that preceded and accompanied pivotal moments of religious transformation in Western history.

Keywords: Thought, Reformation, Islam, Christianity, Influence

مقدمة:

ينتهي الناظر في تاريخ الحضارات إلى كونها كيانات ثقافية واسعة وممتدة، متواصلة فيما بينها، وهذا ما يصطلح عليه بالوصل الفكري، أو التفاعل الحضاري، الذي يتشكّل بفعل التناسخ والتفاعل الفكري ما بين الثقافات المختلفة أو المتعاقبة، فما أن تأفل حضارة حتى يبرز نجم أخرى، إمّا امتدادا لها، أو على أنقاضها تبني.

ويتواصل تشكيل تلك الثقافات في نسق تفاعلي؛ ما يثبت نظرية تزاوج الحضارات وتلاقحها في إطار إنتاجي لأفكار جديدة ذات إيديولوجيات مختلفة في طبيعتها، وامتددة على واقعها وبيئتها وتاريخها. وهذا ما حدث بالضبط عندما سطعت شمس الإسلام على ظلام أوروبا في العصور الوسطى.

يومئذ، أخذ جوّ من الشكّ يعمّ أنحاء الغرب، وظهرت دعوة قويّة إلى اتّباع المسلمين في علومهم وتقليدهم في أساليب حياتهم، وكان هذا كلّ مؤدّي أو سيّادي لمحالة، إلى ضعف إيمان الغرب الأوروبي بنفسه، وزعزعت ثقتة بمبادئه وثقافته وقياداته الروحيّة الماسكة بزمام الأمور.

فلقد كان الركب الأوربي طوال العصور الوسطى يسير تحت سطوة كنيسة روما التي حجبت عن العقل الحقيقة، وتفننت في جندلة أهله، ومصادرة بحوثهم عن الحقيقة، في الوقت الذي كانت فيه الحضارة الإسلامية تحيا أوج عصورها شاهدة حركة علميّة عقلية وفلسفيّة، بلغت أصداء أفكارها أرجاء أوروبا.

أيضا، ولدت ترجمات القرآن الكريم إلى اللغات الأوربية في روح الغربيين التمرد والتوق إلى الخروج عن المألوف بغية الإصلاح. فكان لتلك العوامل الأثر الكبير في تشكّل الفكر الاحتجاجي في أوربا أو ما يعرف بحركة الإصلاح البروتستانتي، وهذا ما سنحاول تقصيه في هذا العمل.

المبحث الأول: ازدهار العلوم الإسلامية في العصور الوسطى؛

ازدهرت الحضارة الإسلامية لمدة طويلة من الزمن، وخاصة في الفترة الواقعة ما بين القرن السابع والقرن الثالث عشر للميلاد، وكانت البلاد خلالها تشكل مركزا عظيما من مراكز الازدهار الحضاري والرقى الفكري. وقد عرفت الساحة الفكرية العربية في تلك الفترة اهتماما بشقّي أنواع العلوم والدراسات الدينية والطبية والرياضية والفلسفية والفلكية وغيرها. وأوّل ما اهتم به المسلمون في بناءهم الفكري والحضاري هو الدين متمثلا في القرآن الكريم والسنة النبوية.

وقد لقيت الدراسات المتعلقة بالقرآن والسنة اهتماما بليغا من العلماء المسلمين على مرّ التاريخ الإسلامي لأنهما يمثلان المصدرين الرئيسيين الذين يعتمد عليهما كل الاعتماد في مجال التوجيه والتشريع، فمنهما يستقي المسلم المبادئ الأساسيّة والقواعد الرئيسية التي ترسم له طريق حياته وتحدد له ملامح فكره وهما المصدران النقليان من مصادر التشريع الإسلامي.

وإذا كان القرآن والسنة يتقلدان هذه المسؤولية العظيمة في المجتمع الإسلامي، فلا عجب بعد ذلك إذا وجدنا أنّ الحركة العلمية الرائدة في التاريخ الإسلامي قد ابتدأت بالدراسات المتعلقة

التفاعل الحضاري بين الإسلام والغرب: مساهمة الفكر الإسلامي في نشأة الإصلاح البروتستانتي.

بهما، خدمة لهما، وتفسيرا لأحكامهما ليكون الرجوع لهما ميسرا وفهم نصوصهما مبينا وواضحا.¹

لا سيما أنّ القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة كانا يومذاك يمثلان القوة الدافعة للحركة الحضارية الإسلامية وكان لهما الأثر البالغ في بناء الشخصية المسلمة يقول ويل ديورانت: "المسلمون كانوا بفضل دينهم رجالا أكمل من المسيحيين؛ فقد كانوا أحفظ منهم للعهد وأكثر منهم رحمة بالمظلومين وقلّما ارتكبوا في تاريخهم من الوحشية ما ارتكبه المسيحيون عندما استولوا على بيت المقدس في عام 1099م. ولقد ظلّ القانون المسيحي يستخدم طريقة التحكيم الإلهي بالقتال أو الماء، أو النار في الوقت الذي كانت الشريعة الإسلامية تضع فيه طائفة من المبادئ القانونية الراقية ينفذها قضاة مستنبرون."²

ولم تقتصر الثقافة الإسلامية على العلوم الدينية وإنما تناولت الجوانب العلمية التجريبية، وأسهمت فيها إسهاما كبيرا، وجادت على الحضارة الانسانية بزاد علمي، وثروة من النظريات والآراء والأفكار اعترف بقيمتها المؤرخون، وأشادوا بدورها الرئيس في تنمية الفكر العلمي الذي قاد المجتمع البشري إلى حضارته الحالية.

وتعد العلوم الطبية من العلوم التي عني بها العرب عناية كبيرة، ونقحوا فيها التعاليم القديمة واقتفوا آثارها على أساس منطقي وأضافوا إليها تجاربهم وجعلوها ملائمة لأيامهم وبلغ من رقي حضارتهم أن الطبيب العربي في العصور الوسطى كان لابد له علاوة على معرفة الطب من الإلمام بأصول الدين والفلسفة والفلك والموسيقى وعلم النجوم وكتب غالينوس ونظرياته.³ أما طريقة الفحص الطبي عند الأطباء المسلمين، فقد ارتفعت إلى أرقى أساليب الفحص الطبي الحديث، فكان الطبيب يجسّ النبض، ويتتبع تاريخ المريض والعلل التي انتابته في حياته، ويهتم بمعرفة الأصول الصحيّة بين أفراد أسرته، وعاداته وطرائق معيشتة، ومناخ البلدة التي يقيم فيها، ويفحص لون الجلد، وملحمة العينين وحالة التنفّس، ولهذا فقد برع الأطباء المسلمون في تشخيص الأمراض والتمييز بين المتشابه منها.

¹ الملأ، أحمد علي؛ أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية، دار الفكر، سوريا، ص: 16
² ويل ديورانت: قصة الحضارة، ت، ت: محمد بدران، دار الجيل للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، مجلد 4، 353/2
³ زكي، علي؛ رسالة الطب العربي وتأثيرها في مدينة أوربا، دار الكتب المصرية بالقاهرة، 1931م، ص: 10.

وعن المسلمين في عصورهم الوسطى أخذ الغربيون نظام مستشفياتهم. بل كان للعرب سبق في إقامة مستشفيات للأمراض العقلية في وقت كان المصابون بها في أوروبا يغلبون بسلاسل من حديد، ويسامون العذاب ألوانا، وأقام العرب أول مستشفى للجذام في مطلع القرن الثامن مع أنّ فيليب الجميل أمر في مطلع القرن الرابع عشر بإحراق جميع المجذومين في فرنسا.¹

أيضا، برع العرب في فنّ الصيدلة وكان لهم عليه فضلا كبيرا، فهم الذين وضعوا أسس صناعة الأدوية، وقد أراد مجمع الصيدلة في انكلترا أن يختار أعظم اثنين تدين لهما علوم الصيدلة بالفضل فوق اختياره على جالت اليوناني وابن سينا العربي.²

كما عني العرب المسلمون أيما عناية بالعلوم الرياضية والطبيعية، حيث مثلت الرياضيات مجال البحث المتواصل والخاص من العلماء المسلمين من أمثال الخوارزمي والبيروني. كما اشتغل العرب بالجبر فجعلوه علما منظما وهم أول من أطلق عليه لفظة "الجبر" وكذلك هم أول من ألف فيه بصورة منظّمة.

ولما كان علماء العرب موضع التقدير البالغ من الخلفاء والأمراء وعامة الناس وأولي الأمر كلّف المأمون الخوارزمي بأن يضع كتابا في الجبر والمقابلة، يكون سهل المنال، لينهل منه علماء العرب، وما كاد ينشر هذا الكتاب حتى استفاد منه علماء العرب وعلماء أوروبا على السواء، واعتمدوا عليه في بحوثهم، وأخذوا عنه الكثير من النظريات.³

أيضا رعى العرب العلوم الهندسية وحفظوها فأثبتت فيهم نباتا حسنا، وأعظم أفضال العرب على الهندسة أنهم اهتموا بها حينما أهملتها الشعوب، ثم ناولوها للأوروبيين في زمن باكر، حيث أخذ الأوروبيون الهندسة اليونانية عن العرب، لا عن اليونان، ونقلوها إلى اللغة اللاتينية.

ولقد كان اهتمام العرب بالناحية التطبيقية من الهندسة أكثر من اهتمامهم بالناحية النظرية وهذا ما تشهد به المباني والقصور التي نهضت في الشرق والغرب.

كما ازدهر علم الفلك بفعل العلماء المسلمين الذين طوّروا فيه فاخترعوا آلة الاسطرلاب، وعملوا على بناء المراصد الفلكية ووضعوا الجداول الفلكية التي تحوي حركة كل كوكب أو نجم ومواضعه عبر السنة، واهتموا بالخسوف والكسوف وتعاقب الفصول.

¹ الطويل، توفيق؛ في تراثنا العربي الإسلامي، عالم المعرفة، الكويت، 1985، ص: 103

² الملاً أحمد علي؛ أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية، مرجع سابق، ص: 143.

³ لملاً أحمد علي؛ أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية، مرجع سابق، ص: 153

التفاعل الحضاري بين الإسلام والغرب: مساهمة الفكر الإسلامي في نشأة الإصلاح البروتستانتي.

كذلك تكلم المسلمون عن قوة الجاذبية قبل نيوتن بقرون وخالف بعضهم نظرية بلطيموس التي تقول بمركزية الأرض، بل قالوا بأن الشمس هي مركز الدوران وكل الكواكب بما فيها الأرض تدور حولها.¹

كيفها كانت الحال، فإن العرب المسلمون في العصور الوسطى كانوا أولي علمٍ عظيم، جاسوا بفضلهم خلال الديار الأوروبية وأخرجوها من ظلامها المعرفي الدامس إلى نور المعرفة والأدب وراح الكتاب والفلاسفة والكتاب والمفكرون العرب يجودون على الغرب بمنتهى نظرياتهم ومخرجاتهم البحثية في أقدم الجامعات المسيحية، وفي وقت يسير أصبح العلماء العرب أمثال ابن سينا وابن خلدون والفارابي وابن رشد والخوارزمي وغيرهم من علماء الأمة الإسلامية مصابيح الدجى يستضيئ بهم الغرب ويمشي على نورهم في بناءه الحضاري.

المبحث الثاني: معابر العلوم الإسلامية نحو الغرب

سطعت شمس الحضارة العربية الإسلامية على ظلام أوروبا في العصور الوسطى من ثلاثة فتحات: احتكاك الغرب بالمسلمين في الحروب الصليبية، وحركة الترجمة والوفود العلمية التدريسية.

المطلب الأول: الحروب الصليبية:

مثل اتصال الغرب بالشرق في الحروب الصليبية لحظة إدراك حقيقية في تاريخ العقل الغربي، وقف فيها مذهولا مهوتا أمام ازدهار الحضارة العربية الإسلامية وتقدم علومها ونضج أهلها. ويعتبر اتصال الغرب بالشرق زمن الحروب الصليبية عاملا رئيسا لإعادة الحضارة الأوروبية على خارطة العالم بعد أن صارت أثرا بعد عين، ولكن يجب أن نفرّق هنا بين الأثر الذي تركته تلك الحروب على أوروبا في المجالين المعيشي والحرفي وبين الأثر العلمي بما هو نقل للكتب والفلسفات والنظريات الطبية.

والواقع أنّ جمهرة المحاربين من هؤلاء الغربيين كان همهم الانتصار على أعدائهم والاستحواذ على بلادهم. ثم إنّ هؤلاء الصليبيين لم يفكروا في نقل تلك العلوم يومذاك إلا قليلا منهم، برغم الأمد الطويل الذي استغرقته حروبهم. ومع أنهم كانوا يدهشون لرقّي الحياة في الشرق ورقّي

¹ الدفاع، علي عبد الله، شوقي جلال؛ أعلام الفيزياء في الإسلام، مؤسسة الرسالة، لبنان، ط2، 1985، ص:143.

المعارف وبراعة الأطباء العرب ويستدعون منهم من يقوم بعلاج قادتهم وقضاء حوائجهم، فإنهم لم يفتيدوا من ازدهار العلوم العربية أكثر من ذلك.¹

حيث يقول غوستوف لوبون أن "تأثير الشرق في تمدن الغرب كان عظيماً بفعل الحروب الصليبية، وأن ذلك التأثير كان في الفنون والصناعات والتجارة أشد منه في العلوم والآداب، وإذا ما نظرنا إلى تقدّم العلاقات التجارية باطراد بين الغرب والشرق، وإلى ما نشأ من احتكاك الصليبيين والشرقيين من النموّ في الفنون والصناعة؛ تجلّى لنا أن الشرقيين هم الذين أخرجوا الغرب من التوحّش، وأعدوا النفوس إلى التقدم بفضل علومهم وآدابهم التي أخذت جامعات أوروبا تعول عليها، فانبثق عصر النهضة منها ذات يوم".²

وبالتالي فإن نقل المعارف العربية إلى الغرب في هذه المرحلة كان بطيئاً في المجال العلمي سريعاً في المجالات الحرفية الفنية والقيمية، وأقصى ما يمكن افتراضه من تأثير الحروب الصليبية في المجالات العلمية هو أن نقرن قيام بعض المدارس الفتية زمن الحروب الصليبية في أوروبا بالتجارة التي نشطت بين جنوبي فرنسا وسواحل بحر الروم الشرقي على غرار مدرسة مونبلييه الطبية.

المطلب الثاني: حركة الترجمة

يشهد تفحص تاريخ بناء الحضارات بأنّ الأمم حين تهتمّ بالنهوض والتيقظ بعد سبات، تنظر إلى ماضيها وتعمل على إحيائه. وتزيد عن ذلك فتتصل بالأمم الأكثر منها قوّة وعلماً وتحضّراً. وتترجم عنها علومها وآدابها وترتشف من معين معارفها ما تجد فيه لذة للشاربين...

هكذا فعلت أوروبا عندما تهيأت لها مقوّمات الصحوّة في بداية العصر المدرسي بعد أن غطّت في سبات آمن لبثت فيه بضع قرون. فارتأت أن إحياء تراثها والنهش في فكر أسلافها اليونانيين أجزل لها صلاحاً وأوفر عليها فائدة.

وحين أدركت أنها لا تجيد لغة أجدادها من اليونان استجارت بتراث العرب المسلمين الذين كانوا قد نقلوا إلى لغتهم تراث أجدادها من اليونان وجدّت في ترجمته إلى اللغة اللاتينية التي كانت لغة العلم في أوروبا آنذاك.

¹ الطويل، توفيق؛ في تراثنا العربي الإسلامي، مرجع سابق، ص: 135
² عويس، عبد الحليم: الحضارة الإسلامية وإبداع الماضي وآفاق المستقبل، دار الصحوّة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2010، ص: 280

التفاعل الحضاري بين الإسلام والغرب: مساهمة الفكر الإسلامي في نشأة الإصلاح البروتستانتي.

وسلكت الترجمة في فترة العصور الوسطى مسلكين رئيسين؛ الأول صقلية وجنوب إيطاليا والثاني مدينة طليطلة الأندلسية.

وقد فتح العرب المسلمون صقلية سنة 827 م، وأخذوا ينشرون حضارتهم في ربوعها، حتى انحسر عنها سلطانهم عام 902 م على يد ملوك النورمانديين الذين لم يكونوا أقل من حكام العرب تسامحا في الدين، وكفالة للعلم ورعاية لأهله. وفي مقدمة هؤلاء روجار الثاني الذي حكم بين سنتي 1130 و 1154 م، واقتن اسمَه بأكبر جغرافي عربي وهو الشريف الأدرسي.

وخلف روجار الثاني حفيده فريديرك الثاني الذي استبد به الإعجاب بحضارة العرب فتشبه بهم في عاداته وأساليب حياته. وكان يقرأ كتبهم في أصولها، لأنه كان ملما باللغة العربية. وفي عام 1224 م أنشأ جامعة نابلي لنقل العلوم العربية إلى العالم الغربي وسرعان ما أضحت مركز الاهتمام بالحضارة العربية، وفيها وضعت ترجمات مختلفة من العربية إلى اللاتينية والعبرية.¹

أمّا طليطلة، فقد ازدهر فيها فن الترجمة بعد سقوطها على يد النصارى سنة 1085 م، وكانت مكباتها الحافلة بالمؤلفات العربية عاملا ملهما للنصارى على الترجمة ونقل كتب العرب إلى اللغة اللاتينية. فصارت المدينة يومذاك مركزا مهما انتشرت منه فنون العرب المسلمين وعلومهم إلى أوروبا، إذ قام الملك ألفونسو السادس بإنشاء "معهد المترجمين الطليطليين" الذي ذاع صيته في أوروبا عندما لجأ إليه نفر من العلماء الإسبان والأندلسيين والبروفنسيين في عهد ألفونسو السابع.²

وقد مرّ على مدينة طليطلة ثلّة من أبرز المترجمين من بينهم الأنجليزيان روبرت ألكتون وأدغار ألباثي واليهودي أبراهام بن عزرا والإيطالي جيراردو الكريموني ودومينيكوس غندي سالف، وهو من رجال كنيسة طليطلة ويوحنا بن داود الاسباني اليهودي المتنصر.³

وقد تطلّع علماء المسيحية في أوروبا في هذه المرحلة إلى معرفة القرآن الكريم وفهم معانيه، فقام بطرس المبجل بتكليف عدد من المترجمين بدراسة القرآن وترجمته، وقد استغرق عملهم ثلاث

¹ الطويل توفيق؛ في تراثنا العربي الإسلامي، مرجع سابق، ص: 135

² عباسية محمد: الترجمة في العصور الوسطى، مجلة حوليات التراث، العدد الخامس، 2006، ص: 11.

³ آنخل جنثالت بالاثيا؛ تاريخ الفكر الأندلسي، ت: حسين مؤنس، القاهرة 1955، ص: 537

سنوات وادعوا ترجمتهم في دير كلوني، ووضعت تحت تصرف الدارسين من الرهبان.¹

وظلّت صحة هذه الترجمة موضع نقد وقد اجمع الباحثون الغربيون على عدم أمانتها فقد انبثقت عن ذهنية الحروب الصليبية، كما انبثقت في الوقت ذاته عن الرغبة الشديدة لإزالة كل أثر للإيمان من أذهان المسلمين.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ الترجمات الأوروبية لمعاني القرآن الكريم قد مرت بأربع مراحل متداخلة، بدأت المرحلة الأولى في القرن الحادي عشر الميلادي، وامتدت إلى القرن الثاني عشر، وتم خلالها ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية، أعقبها مرحلة الترجمة من اللاتينية إلى اللغات الأوروبية الحديثة، ثم كان دخول المستشرقين لهذا المجال أن أوجد مرحلة جديدة تمت خلالها الترجمة من اللغة العربية إلى اللغات الأوروبية مباشرة، وأخيرًا مرحلة دخول المسلمين ميدان الترجمة، وعلى هذا فقد شهدت العديد من اللغات الأوروبية الحية ترجمات لمعاني القرآن الكريم، فقد ترجمت معانيه إلى اللغات: اللاتينية، الإيطالية، الألمانية، التشيكية، الهولندية، الفرنسية، الإنجليزية، اليونانية، اليوغسلافية، البلغارية، الدانمركية، الألبانية، الفنلندية، النرويجية.²

يبدو واضحاً أنّ حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية في العصور الوسطى كانت مذهلة وسريعة في آن. وقد تضافرت عوامل عديدة ساهمت في إنجاحها عوامل مختلفة كالرغبة الملحة لدى بعض الغربيين في اكتشاف حضارة الشرق والاطّلاع على موروث أسلافهم اليونانيين عن طريق وساطة اللغة العربية، وكذلك يوجد عامل ملحّ ساهم في إنجاح تلك الحركة وهو سعي الكنيسة الكاثوليكية الدؤوب على محاربة الإسلام بغية التأسيس لبيئة شرقية مسيحية تتحدث العربية.

المطلب الثالث: البعثات التعليمية:

¹ فكري، محمد همام؛ أوائل ترجمات معاني القرآن في اللغات الأوروبية، مكتبة التراث العربي والإسلامي، ط1، قطر، 2011، ص22.

² عفيفي، علي: أوائل ترجمات القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية، مجلة فكر الثقافية، 2017-03-20.

التفاعل الحضاري بين الإسلام والغرب: مساهمة الفكر الإسلامي في نشأة الإصلاح البروتستانتي.

أخذت البعثات الأوروبية تتوالى تدرى على الأندلس بأعداد متزايدة سنة بعد أخرى حتى بلغت سنة 912 م في عهد الخليفة الناصر زهاء سبعمائة طالب وطالبة. وكانت إحدى هذه البعثات من فرنسا برئاسة الأميرة إيليزابيث ابنة خال الملك لويس السادس ملك فرنسا. وبعث فيليب ملك بافاريا إلى الخليفة هشام الثاني (965-1013) بكتاب يأذن إليه بإرسال بعثة من بلاده إلى الأندلس للاطلاع على مظاهر التقدم الحضاري فيها والاستفادة منها. فوافق الخليفة هشام وجاءت بعثة هذا الملك برئاسة وزيره المدعو ويلبمين المعروف عند العرب بوليم الأمين.

وفي الوقت نفسه عمد بعض ملوك أوروبا إلى استقدام علماء الأندلس لتأسيس المدارس ونشر ألوية العلم والعمران. ففي خلال القرن التاسع الميلادي وما بعده وقعت حكومات هولندا وسكسونيا وناكلترا على عقود من حوالي تسعين من الأساتذة العرب في الأندلس بمختلف العلوم، وقد اختير هؤلاء من بين أشهر العلماء الذين كانوا يحسنون اللغتين الإسبانية واللاتينية إلى جانب اللغة العربية.

إذن، استطاعت الحضارة الإسلامية أن تأثر في من جاورها من الأمم وتأخذ بأيديهم على درجات السلم الحضاري، وأن ترسل أشعة نورها وعمرانها عبر ثلاثة معابر: بما مهد القفزة الهائلة في العلوم التجريبية وتأسيس نهضة الغرب في العصر الحديث، مما يؤكد أن الحضارة في جانبها المادي والعمراني سلسلة متصلة الحلقات، ينبني اللاحق منها على السابق، وتسهم فيها كل أمة وحضارة بنصيبها.

ولكن المحزن هنا هو أن معظم الكتابات الأوروبية اسقطت من تاريخها دور الحضارة العربية الإسلامية ومنهم من اعتبر أن دور الحضارة الشرقية لا يعدو أن يكون مجرد همزة وصل بين الحضارة اليونانية والحضارة الغربية الحديثة، والواقع بلا ريب أن المسلمين قد استوعبوا حضارات السابقين ونقحوها ومن ثمة طوروها وأضافوا عليها الشيء الكثير.

المبحث الثالث - فضل الفكر الإسلامي على تشكيل اللبنة الأولى للإصلاح الديني:

إن احتكاك الغربيين بالعالم الإسلامي سواء أكان هذا الاحتكاك سلمي أو حربي قد مكّن لهم من رؤية واقع المجتمع المسلم الذي يعيش في ظل عبادة الله وحده بحرية بالغة وبعيدا عن أي

سلطة تفرض على القوم أو وساطة بينهم وبين ربهم، رأوا تقدم المسلمين في جميع مجالات الحياة، وشاهدوا قيامهم بأعظم الحضارات، كما في إسبانيا الأندلسية التي قامت بها أكبر الجامعات والتي حفزت النخبة الأوروبية وسمحت لها بإعادة إحياء منابع التراث الفلسفي الإغريقي¹، بالإضافة إلى أنهم نهلوا شتى أنواع المعارف منها. ففي الوقت الذي عاشت أوروبا فيه عصوراً وسطى مظلمة، تحققت إبداعات إسلامية مميزة، أثرت في النهضة الأوروبية بحكم الجوار بقيمة علمية باسقة، قام بها العلماء المسلمون².

وأخذت الأفكار في ذلك العهد تتراسل، والرغبة في العلم تتزايد بين الغربيين، ونهضت الهمم لقطع سلاسل التقليد، ونزعت العزائم إلى تقييد سلطان زعماء الدين والأخذ على أيديهم فيما تجاوزوا فيه وصاياه، وحرفوا في معناه، ولم يكن بعد ذلك إلا قليلاً من الزمن حتى ظهرت طائفة منهم تدعو إلى الإصلاح والرجوع بالدين إلى طبيعته.

والتمست أوروبا الطريق نحو الإصلاح بفضل نور الحضارة الذي اقتبسته من مراكز الثقافة الإسلامية في الأندلس وصقلية وجنوب إيطاليا، التي كانت تشع نور العلم والمعرفة على القارة المستغرقة في دياجير الخرافة والجهل، فاستيقظ العقل الأوروبي من سباته، وأخذ يتلقى من المسلمين طرائق البحث ومناهج التفكير التي تجعله يكبد ويعمل في مجال اختصاصه دون وصاية ضاغطة.

وقد بدت بوادر التأثير الإسلامي على الرغبة في الإصلاح في فترة متقدمة عندما أبان البابا سيلفستر الثاني معاداته للأساقفة وأخلاقياتهم بعد أن ارتوى من بحر علوم المسلمين وفلسفتهم ومخالطة الحكماء ورجال الدين منهم في الأندلس.

⁸ - جورج قزم: تاريخ أوروبا وبناء أسطورة الغرب. ت: رلى ديبان، ط1، بيروت، لبنان، دار الفرائي، 2011، ص: 160.

⁹ - شوقي أبو خليل: علماء الأندلس إبداعاتهم المتميزة وأثرها في النهضة الأوروبية، ط1، دمشق، دار الفكر، 2004م، ص: 94.

التفاعل الحضاري بين الإسلام والغرب: مساهمة الفكر الإسلامي في نشأة الإصلاح البروتستانتي.

كما استبدت المؤثرات الثقافية الإسلامية بهوى الإمبراطور فريديريك الثاني المجيد للغة العربية والمغرم بالحضارة الإسلامية، حتى أنّ الكنيسة اتهمته حين عاهاها باعتناق الإسلام ووسمته بالأناثيما وسمّته "الزنديق الأعظم" اما المفكرون المعاصرون فيسمونه ب"أعجوبة العالم".

وإننا نجد بوادر التأثير الإسلامي على بعض الفرق الإصلاحية التي ظهرت في العصور الوسطى والتي مهدت الطريق للإصلاح البروتستانتي، على غرار الرهينة الفرنسيكانية، وقد ظهر الفرنسيكان في الشمال الإيطالي في مقبيل القرن الثالث عشر على يد القديس فرنسيس الأسيزي .

وقد أخبر المؤرخ الفرنسي أرنست رينان في كتاباته بأن الروحانية الفرنسيكانية قد انتفعت كثيرا من الأفكار الفلسفية الإسلامية وأنّ ما تتصف به المدرسة الفرنسيكانية من دقة وخلط بين النظام المنطقي والنظام الكوني وميل إلى تحقيق المجردات، كان يقيم أكثر من صلة قرابة بين هذه المدرسة والفلسفة العربية وقد رأى المجلس الديني الذي عقد في أسيز سنة 1295م نفسه مضطراً إلى القسوة في ردّ ميل المنظمة إلى الآراء الغربية.¹

وليس ببعيد عن الفرنسيكان، تأثر بعض رموز التصوف الدومينيكان الألمان في القرن الرابع عشر بالأفكار الوافدة من الشرق، فكانوا يستندون على الافتراضات العقلية الفلسفية العربية وخاصة الرشدية منها في إثبات نظرياتهم في الاتصال بالله.²

ويرى رينان أنّ الدومينيكان المعلم إيكارت أبو الفلسفة كان أكثر الدومينيكان انتفاعا بفلسفات العرب وقد كان المعلم ناقدا لاذعا لعدد الأفكار اللاهوتية في العصور الوسطى ما كان سببا في إدانته بثمان وعشرون قضية مخالفة للفكر الكاثوليكي.

¹ أرنست، رينان؛ ابن رشد والرشدية، ت: عادل زعتر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1957، ص276

² أرنست، رينان؛ ابن رشد والرشدية، ت: عادل زعتر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1957، ص:277.

وغير بعيد عن إكارت، اهتم اللاهوتي الانجليزي جون ويكلف بالإسلام ولم يكن ويكلف يشاطر الرأي القائل بأن الإسلام قد انفصل كلياً عن المسيحية وأن القطيعة بين المعتقدين قد حدثت دون رجعة، في مرحلة ما من مراحل تاريخهما. وما يهْمنا هنا أن دراسة الإسلام كانت ملهمة في بعض جوانبها لجون ويكلف وحمّست فيه الشعور بالواجب الديني فهاجم البابوية وانتقد في كنيسة الكاثوليك حيمهم للمال والدنيا ورفض عقيدة المطهر والوساطة الدينية ونادى بالاحتكام فقط لسلطة الكتاب المقدس وهي الأفكار التي مهّدت الطريق للفكر البروتستانتي وتبناها مصلحو القرن السادس عشر.¹

ومن الفلسفات المتأخرة التي قاربت عهد الإصلاح وأثرت فيه تأثيراً مباشراً الفلسفة الأوكامية المنسوبة لصاحبها وليام أوكام أستاذ رائد الإصلاح البروتستانتي مارتن لوثر وتلميذ ابن رشد، وقد استند لوثر إلى هذه الفلسفة وتأثر بها أثناء أزمته الروحية وتزوّد بها في رحلته الإصلاحية. حيث كان يقرأ فلسفة أوكام المستوحاة من الأفكار الرشدية والتي تعتبر أن شرّ الظلم ظلم رجال الدين، وترى أن أفضل الحكومات هي تلك التي لا تعدّ لنفسها شيئاً من السلطان الديني على الأشخاص، ولا تحتفظ بشيء من الامتياز أو الوساطة أو الفضل للحكّام.²

هذا التوجّه يحيل العاقل مباشرة إلى القسم السياسي من فلسفة ابن رشد الذي يعدّ حكومة الخلفاء الراشدين أفضل أنواع الحكومة، معتبراً أن شرّ الظلم ظلم رجال الدين، فيفضل من حكومات الخلفاء الراشدين تلك الحكومة التي لا تعدّ لنفسها شيئاً من السلطان الروحي على الناس ولا تحتفظ بشيء من الميز أو الفضل لهؤلاء الحكّام على العامة.³

ولا نقول هنا أن الفكر البروتستانتي قد تبني المنهج الرشدي بشكل مباشر، بل أن الجو الفكري

¹ نريمة، أحمد: أوروبا ومسألة الإسلام، نظرة الغرب إلى الإسلام والمسلمين حتى ظهور الاستشراق، المعهد العالي للفكر الإسلامي، الأردن، 2019، ص: 119.

² براهيم سليمة: جهود الفكر الإسلامي في إرساء بوادر الإصلاح الديني، الفلسفة الرشدية نموذجاً، مجلة هيرودوت للعلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد 25، ص: 188.

³ الخولي، أمين: الأعمال الكاملة - صلة الإسلام بالمسيحية - الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1993، ص: 64.

التفاعل الحضاري بين الإسلام والغرب: مساهمة الفكر الإسلامي في نشأة الإصلاح البروتستانتي.

الأوروبي الذي سبق مرحلة الاحتجاج الكنسي والذي تبلورت فيه فكرة الإصلاح نفسها، قد تأثر فعلياً بالفكر الرشدي الوافد من الشرق، الذي أسهم في تشجيع الفكرة التحريرية التي رفضت الوساطة الكنسية ودفعت نحو الرجوع إلى النصوص المقدسة بعيداً عن تأويلات رجال الدين. ومن ثم، يمكن القول إن الفكر الرشدي كان بمثابة أساس فكري غير مرئي ساعد في بلورة أفكار لوثر الإصلاحية، حيث اتسمت كلتا الحركتين بالبحث عن التحرر من السلطة الدينية الظالمة والمطالبة بإعلاء العقل وتحرير الضمير.

وهذا ما يشير إلى "فكرتين رئيسيتين كانتا راسختين في المجتمعات المسلمة وبهما كملت انسانية المسلم، ونادت بهما البروتستانتية في مرحلة لاحقة هما؛ استقلال الإرادة واستقلال الرأي والفكر" والقول هنا للشيخ المصلح عبده.¹

وفي الحقيقة تؤكد بعض الدراسات رغم قلّتها إلى أنّ موقف مارتن لوثر نفسه من الإسلام قبل تأسيس حركته الإصلاحية إيجابي بشكل نسبي حيث عقد بعض المقارنات بين العبادات الإسلامية والطقوس الكنسية السائدة في أوروبا يومذاك وانتهى به الأمر إلى نقد النموذج الكاثوليكي للمسيحية، كما أثنى على المسلمين وتواددهم وتراحيمهم وأثنى خاصة على نبذهم للأصنام والتماثيل التي يقدها المسيحيون.

أمّا عن انقلاب موقفه تجاه المسلمين وموقفه من تاريخية الديانة المحمدية ومقاصدها فقد ابتداءً من سنة 1541م فيعود بالأساس إلى خوف من الزحف العثماني في أوروبا الذي مثل كابوساً للوثر وغيره من الرجال الدين سواء كانوا محافظين أم بروتستانت.

من جهة أخرى ساهمت ترجمات القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية بالرغم من شائها من لبوس وتشويهات في الدفع بالفكر الاحتجاجي الإصلاحي، ويمكن التماس أثر تلك المساهمة من

¹ عمارة، محمد؛ رسالة التوحيد للإمام الشيخ محمد عبده، دار الشروق، ط1، بيروت، 1994، ص: 143

اتجاهات عديدة:

فهذا الفكر وإن لم ينتسب رسمياً إلى القرآن والترجمات التي عملت له، فإنه لا بد أن يكون قد استوحى بصورة أو بأخرى ما تميّزت به الأخبار القرآنية من إسقاط للخطيئة الأصلية بتوبة آدم، وبنفي كل وساطة بين الله والإنسان وتأكيد أن الإيمان هو وحده هو الرابطة التي تربط بين الله والمؤمنين وإنكار تقديس التماثيل والصور وهذه هي الأعمدة الأساسية التي قام عليها الإصلاح الديني الذي تزعمه مارتن لوتر ومن بعده أورليخ زوينجلي وجون كالفن.

خاتمة:

تكشف نتائج هذا البحث عن أهمية إعادة النظر في المسارات التاريخية للتأثير والتأثر بين الحضارات، خاصة ما يتعلق بالدور الذي اضطلع به الفكر الإسلامي في تمهيد الأرضية الفكرية التي سبقت الإصلاح البروتستانتي في أوروبا. فمن خلال تتبع النقدي لقنوات التفاعل الحضاري، اتضح أن الفلسفة والعلوم والمباحث الدينية التي ازدهرت في سياق الحضارة الإسلامية لم تبقى حبيسة جغرافيتها، بل وجدت طريقها إلى أوروبا اللاتينية، وأسهمت في بلورة وعي جديد بالدين والعقل والعلم.. ولا يعني هذا الطرح التقليل من خصوصية التجربة الأوروبية في الإصلاح، بل يستهدف إبراز الأبعاد المهمة في سرديات التاريخ الغربي، والدعوة إلى مقارنة أكثر شمولاً تنظر إلى الحضارة الإسلامية بوصفها شريكاً معرفياً في تشكّل الحداثة الأوروبية. ومن ثمّ، فإن هذه الدراسة تفتح المجال لمزيد من الأبحاث التي تستقصي الروابط المعرفية العابرة للثقافات، وتعيد رسم الخريطة الفكرية للعالم ما قبل الحديث بعيداً عن القطيعة والانغلاق.

وبشكل عام يمكن تلخيص النتائج التي انتهى إليها نظرنا في النقاط الآتية:
-عرفت البلاد الإسلامية نهضة شاملة في العصور الوسطى ومثلت مركزاً مهماً من مراكز الازدهار الحضاري والتقدم الفكري....

-كان للدين الإسلامي دوراً رئيساً في البناء الحضاري الإسلامي من خلال مبادئه التي تحث على تكريم الإنسان والنظر والعلم والتدبر في الكون كما أن الإسلام جعل من العلم فريضة على المسلم ورفع قدر العلماء وخاطب العقل ووجهه نحو التفكير والإبداع.

التفاعل الحضاري بين الإسلام والغرب: مساهمة الفكر الإسلامي في نشأة الإصلاح البروتستانتي.

- في زمن ازدهار الحضارة الإسلامية كانت اوروبا تعيش عصوراً مظلمة منحطة وكان للفساد الكنسي الكاثوليكي دوراً رئيساً في ذلك الانحطاط.
- خلف العلماء المسلمون تراثاً غنياً في مجال الآداب والعلوم خاصة في الطب والرياضيات والفلك استفاد منه الغرب في بناءه الحضاري.
- مثلت الحروب الصليبية وحركات الترجمة والبعثات العلمية المعابر الرئيسة للعلوم الإسلامية نحو الغرب.
- ساهمت النهضة العلمية الإسلامية واحتكاك الغرب بالمسلمين في تشكيل اللبنة الأولى للفكر الاحتجاجي في الغرب.
- أثرت الأفكار الوافدة من الشرق بشكل مباشر في المجتمع الأوروبي وجعلت منه بيئة فكرية خصبة تشكّل فيها التيار الاحتجاجي الكنسي.
- تأثر الفكر الإصلاحى في بعض جوانبه بترجمات القرآن الكريم .

- قائمة المراجع

- 1-أرنست، رينان؛ ابن رشد والرشدية، ت: عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1957
- 2-آنخل جنثالت بالاثيا؛ تاريخ الفكر الأندلسي، ت: حسين مؤنس، القاهرة 1955
- 3-براهمي سليمة: جهود الفكر الإسلامي في إرساء بؤادر الإصلاح الديني، الفلسفة الرشدية نموذجاً، مجلة هيرودوت للعلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد 25
- 4-جورج قرم: تاريخ أوربا وبناء أسطورة الغرب. ت: رلى ديبان، ط1، بيروت، لبنان، دار الفرابي، 2011،
- 5-الخولي أمين: الأعمال الكاملة صلة الإسلام بالمسيحية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1993
- 6-الدفاع، علي عبد الله، شوقي جلال؛ أعلام الفيزياء في الإسلام، مؤسسة الرسالة، لبنان، ط2، 1985
- 7-زكي، علي؛ رسالة الطب العربي وتأثيرها في مدينة أوربا، دار الكتب المصرية بالقاهرة، 1931م.
- 8-زنيمة، أحمد: أوروبا ومسألة الإسلام، نظرة الغرب إلى الإسلام والمسلمين حتى ظهور الاستشراق، المعهد العالي للفكر الإسلامي، الأردن، 2019.
- 9-شوقي أبو خليل: علماء الأندلس إبداعاتهم المتميزة وأثرها في النهضة الأوروبية، ط1، دمشق، دار الفكر، 2004م

- 10- الطويل، توفيق؛ في تراثنا العربي الإسلامي، عالم المعرفة، الكويت، 1985
- 11- عباسية محمد: الترجمة في العصور الوسطى، مجلة حوليات التراث، العدد الخامس،
- 12- عفيفي، علي: أوائل ترجمات القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية، مجلة فكر الثقافية، 2017-03-20.
- 13- عمارة، محمد؛ رسالة التوحيد للإمام الشيخ محمد عبده، دار الشروق، ط1، بيروت، 1994، ص: 143
- 14- عويس، عبد الحليم: الحضارة الإسلامية وإبداع الماضي وآفاق المستقبل، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2010،
- 15- فكري، محمد همام؛ أوائل ترجمات معاني القرآن في اللغات الأوروبية، مكتبة التراث العربي والإسلامي، ط1، قطر، 2011
- 16- الملاً أحمد علي، أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية، دار الفكر، سوريا
- 17- ويل ديورانت: قصة الحضارة، ت: محمد بدران، دار الجيل للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، مجلد4